امرأة من صفيح

عادل السمري

صفيحٌ صدأ..جدران عُشَّتِي. أربعةُ عروقٍ خشبيةٍ في باطن الأرض غُرستْ.

حملت على عاتقها سقفًا خشبي الألواح.. مثقل بالغاب والبوص والخرق البالية.

كل أثاث عُشَّتِي.. سريرٌ صُنع من المعدن.. كالقبر في حجمه.. متر في متر، علمت يومًا أنه من مخلفات أحد المستشفيات.

عليه ممددةٌ.. مرتبةٌ قطنيةٌ عفنةٌ.

فَرشتُ عليها لأواريها ملاءة خشنة.

لي وسادتان أضع الطويلة منهما في صدر السرير، والصغيرة أسند ظهرها إلى الجدار الصفيحي بين مثيلاتها من العُشش تكومت عشتي.

تكومت عند الجانب الشرقي من شريط القطار الذي يخترق تلك المستعمرة الكائنة بالحي الآخذ من عين الشمس لقبًا له.

لي زوجٌ شأني وشأنه شأن كل القابعين خلف الجدران الصفيحية لتلك العشش.

تغرق حتى النخاع في الجهل فاتحة الكتاب لا ندري من أمرها شيئًا.

لنا دينٌ غير أننا لا ندري من تعاليمه شيئًا.

لا شهادات ميلاد لنا، فنحن ساقطو القيد في تلك البلاد.

لا وثائق زواج لنا، فنحن من ننكح أنفسنا بأنفسنا.

كلنا أشباح على الأرض تسعى، لا هوية لها ولا تحقيق شخصية.

لا تعرفنا الحكومات إلا حينما تريد شرطتها كبشًا يُذبح فداءً على أعتاب سجونها.

كل العشش أوكارٌ متجاورة لتعاطي المواد المخدرة، كل واحدةٍ لها حصتها فلا تجور عُشة على نصيب الأخرى، ولا على زبائنها.

عصرُ يوم غائم.. جلستُ بعشتي وبين قدميّ العاريتين كومة ملابس انهمكت في غسيلها.. جسدي كان يستره رداءٌ خفيفٌ يصف ويشف حينما داهمني زوجي وبيده رجلان.. نهضتُ ألملمه في عباءة سوداء تصد نظرات الرجلين المتجولة في مسافاته.

لي جسدٌ ضامرٌ لم يرُق لي كثيرًا.

صدأٌ كصدأ صفيح عشتي رغم أنه قمحي البشرة.. هكذا أراه وأشعر به

لا تضاريس بارزة به، ولا تقسيم منمَّق فيه، ولا تفاصيل مهمة له تنم عن أنه لأنثى.

نهداي ليمونتان جفتا وتعلقتا بصدري البارزة عظامه، لا أدري أي موضع بجسدي آثار رجلين كهذين حتى يقتحمانه بتلك الوقاحة؟.

بدا الرجلان صيدًا ثمينًا لزوجي فقد كان لهما من الوجاهة والثراء ما يجعل لُعاب أي رجل من رجال العشش يسيل لاستضافتهما، فقلما تجود عليه الصنعة بمدمنين كهذين.

كان للنهار بقايا قضاها الرجلان بصحبة زوجي الذي أمعن في إمتاعهما وإغراقهما في لذة المخدر حتى بات ليلته بعد رحيلهما منتشيًا باصطيادهما وأموالهما.

اعتادا عُشَّتنا، واعتاد زوجي قدومهما وأموالهما، واعتادا التطلع فيّ. واعتدتُ نظراتهما الوقحة رغمًا عن نفسي المتألمة.. فتلك صنعتنا ومنها نأكل خبزنا وشأني شأن نساء العشش كلهن.

من رحم الغيب وُلدت ليلة

كانت هادئة.. باردة

لا يخطو في دروبها سوى ريحُ شيطانٍ وجسدٌ يتوق لجرعة مخدر

تكومتُ في صدر سريري جالسة القرفصاء أغالب النوم وأحرم على جسدي التمدد أمام أعين هذين الرجلين حتى يرحلا.

كانت لوسوستهما في أذن زوجي أصداء تُشكل كابوسًا يباغتني كلما غفوت منحوه كومة مال مقابل أن يمنحهما لذة الاختلاء بي و.....

أفقت من غفوتي. تألقتْ خيالات أمام عينيّ التائهتين في ضبابية النوم.

زوجي يفرغ في وريده حقنة مخدر على غير عادته

والرجلان عاريان؛ أحدهما يكممني ويجهض محاولاتي للإفلات... والآخر يشدني لأتمدد.

تمزقت رداءاتي الثقيلة من نبش أظافرهما ..تعريت

زحف البرد يسطو على جسدي، ليشاركهما لذة النهش

سقطت وسادتايَ على الأرض.

سقطت لزوجة متعتهما العفنة تدنس جسدي، تنخر فيه.. تفجر غضبتي

سقطا جسديهما ممديْنِ على الأرض يلهثان لا يعيان شيئاً ..مخدريْنِ.

نهضتُ عارية أخطو فوق صدورهما.

تناولتُ كل الحقن المعبأة بالمورفين والهيروين، وأفرغتها في شرايينهما البارزة بزرقتها ووقفتُ على رؤوسهما أرجمهما بعُريّ.. حتى تشنجا.

مدا لي يدًا .. ظنًا أن من قتلهما سيمنحهما النجدة

أهلتُ على جسدي عباءتي السوداء لما أهال الموت عليهما أستاره

أزحتُ بيدي كومة المال فتبعثرت.

ارتميتُ على صدر زوجي فقد مات.

أطلقتُ العنان لصرخاتي تشق جدار الصمت المطبق على القابعين خلف جدران العشش الصفيحية.

تمت بحمد الله.